

# بالغناء خاضت دول البلطيق ثورتها وتحررت من الاتحاد السوفياتي



تالين، شهد مهرجان «تارتو» لموسيقى البوب في 14 مايو 1988 إطلاق 5 أغان وطنية أداها الحضور وهم يرقصون بأبواب متشابكة وتنازلت المهرجانات تعبيراً عن المشاعر الوطنية.

وفي 16 نوفمبر 1988 أصدر برلمان استونيا وثيقة إعلان السيادة.

حاول السوفييت الزحف بدياباتهم مطلع عام 1991 لمنع الاستقلال لكن الإذاعة والتلفزيون الاستوني اللذين سارعا لبث أغان وطنية وحشد المواطنين نجحا في دفع آلاف المواطنين للخروج وتشكيل دروع بشرية لحماية المقرات الرئيسية في الدولة.

سارت الأمور على نفس المنوال والتوتيرة في كل من جارتى استونيا لاتفيا وليتوانيا.

في لاتفيا كان التوتر والحراك على أشده منذ الإعلان عن مشروع سوفييتي في 1986 لبناء محطة كهربية على نهر دوغافا وخط مترو سريع في العاصمة ريغا، فيما يشكل تهديدا للتراث الثقافي والبيئي في البلاد، ولعب نشطاء البيئية ولاسيما أعضاء النادي البيئي دورا كبيرا في تحريك الجماهير.

وفي 1 و2 يونيو 1988 عقد اتحاد الكتاب اللاتفيين مؤتمرا جاهرأ فيه بالمطالبة بالديموقراطية في المجتمع ووقف الزوح من مناطق الاتحاد السوفييتي الأخرى إلى بلادهم وبلاستقلال اقتصادي وحماية لغتهم وتراثهم.

ومن المحطات البارزة في الثورة قيام سكان جمهوريات البلطيق الثلاث في 23 أغسطس 1989 بتشكيل خط بشري بين العواصم الثلاث: تالين وريغا وفيلينوس لإرسال رسالة استقلالية إلى الاتحاد.

بالنسبة لليتوانيا، التي شهدت أيضا محطات غنائية كان أبرزها احياء نشيد ليتوانيا والعلم الثلاثي الألوان، كانت أولى الجمهوريات التي سارعت إلى إعلان استقلالها في 11 مارس 1990.

لكن الرد السوفييتي لم يكن سلمي كما في استونيا، حيث قتلت القوات السوفييتية 14 متظاهرا يوم الأحد 13 يناير 1991 حاولوا حماية المبانى على غرار ما جرى في استونيا، لكن ذلك لم يثن المتظاهرين عن مواصلة تظاههم السلمي ما اعطى اشارة واضحة على أن الدماء لن تحل المشكلة ولن تسكت الغناء!

بيننا المشترك، بيت وليست مسرحا للعمليات العسكرية»، هذا الافتتاح هو الذي فتح له الأبواب في الغرب، كما كان ينادي بإمكانية قيام شيوعية جديدة واشتراكية مختلفة غير مثقلة بما عانته من صدمة بسبب السلطوية والديكتاتورية والبيروقراطية التي جعلتها التجربة عناوين ملخصة بها.

لن نخوض بالبيروسترويكا فهي ليست موضوعنا وسننتقل من الغلاسنوست وما أتاحه من هوامش لحرية التعبير.

لم يصدق المراقبون ان غورباتشيف ليس رجل «كي.جي.بي» جديدا يستأثر بالسلطة ويصرح بعكس ما ينوي القيام به، ولكن مع بدء الافراج عن مئات المعتقلين السياسيين، والتمسك بالخطاب الانفتاحي استنقار هذا الرجل مشاعر الليبراليين وحرك رغبات التغيير خاصة بالشفافية في التعااطي مع أزمة تشرنوبيل وحرب أفغانستان والرغبة في الانفتاح على الغرب.

في الواقع كان يأمل ان يساهم ذلك في إعادة الروح إلى جسد الاتحاد، ولكن كان ذلك متأخرا جدا. في استونيا واعتبارا من 1997 كانت الأغاني الوطنية تسود في المهرجانات المحلية وبدأ التمايز عن الاتحاد السوفييتي بشعبه وأرضه وحضارته واستفادت ذكريات الظلم والقمع والإرهاب الموروث من الحقبة الستالينية وتحولت إلى وقود لرفع الصوت في عصر «الغلاسنوست» والمناذاة بالاستقلال.

كانت استونيا المبادرة لقرها من فنلندا وتأثرها بحياة الشعب الفنلندي وعاداته وتقاليده من خلال وسائل إعلامه التي كانت تلتقط في استونيا.

لقد كان غورباتشيف والسوفييت يرون أو على الأقل يأملون ان مشاعر التحرر لن تبلغ حد مطالبة شعوب الاتحاد غير الروسية بالانفصال وبلاستقلال النهائي والطلاق البائن من ارث الحقبة السوفييتية الا ان الرغبة في تغيير الواقع والعودة الى الجذور كانت اكبر وفرضت نفسها.

## مراحل الثورة

في استونيا كانت البداية وبعد سلسلة من التجمعات بلغ أعضخها نحو 300 ألف (أكثر من ربع عدد سكان البلد) في حي مدينة القديم في العاصمة



يدا بيد في التطلع إلى الحرية

بالغناء أربع سنوات تحررت دول البلطيق الثلاث: استونيا واتفيا وليتوانيا من الاتحاد السوفييتي المتداعي مطلع 1991.

حفلت هذه الثورة بكثير من الرمزية التي ألهمت باقي الثورات في أوروبا الشرقية، وكانت مؤشرا على قرب انهيار المعسكر الشرقي ومعه جدار برلين. امتدت بين 1987 و1991 وبدأت أغان وطنية تستعيد الخصوصيات القومية والائنية والتاريخية للدول الثلاث التي ضمت إلى الاتحاد السوفييتي ابان الحرب العالمية الثانية.

حملت الأغاني رسائل رفض وتحسد للحزب الشيوعي وحكمه وأشواقا إلى الحرية والعودة إلى الماضي وتطلعا إلى الغرب الذي تعتبر الدول الثلاث جزءا منه اليوم بعضويتها في الاتحاد الأوروبي. منذ 1987 أيضا بدأ الثوار السلميون خاصة في استونيا وعاصمتها تالين التي كانت المحطة الأهم للثورة برفع الأعلام التي تعود لمرحلة ما قبل الحقبة السوفييتية في تاريخها ونشيدها الوطني الخاص عقود. وفي 1990 كانت استونيا أول دولة سوفييتية تتحدى قانون الاتحاد بتوفير خدمة بديلة للخدمة العسكرية الإلزامية في الاتحاد.

تتألف منطقة البلطيق من 3 دول هي استونيا واتفيا وليتوانيا، تبلغ مساحتها معا نحو 175 ألف كلم2 أي أقل من 1% من مساحة الاتحاد السوفييتي ومسكانها نحو 8 ملايين أي أقل من 3% من سكان الاتحاد. وكانت هذه الجمهوريات مستقلة ما بين الحربين العالميتين، لكن الاتحاد السوفييتي ضمها عام 1940 خلال الحرب العالمية الثانية بموجب الاتفاق السري بين ستالين وهتلر عام 1939.

أدت أجواء الارهاب الفكري والجسدي في عهد ستالين ثم استمرار التشدد وان بوتيرات أقل في عهد كل من خروتشيف وبريجنيف ثم اندريوف وتشيرينكو إلى منع أي تحرك جدي بهدف المعارضة والانفصال، واستمر الوضع على ما هو عليه إلى ان جاء غورباتشيف إلى السلطة في 11 مارس 1985. وصل غورباتشيف في حقبة صعبة جدا على الاتحاد، حيث كان التضخم في تصاعد والنمو في تراجع وشيخ المجاعة يخيم فوق أجزاء عديدة من أكبر دولة في العالم.

الاتحاد السوفييتي الذي كان لايزال في خضم الحرب الجاردة مع الغرب والذي كان يضح بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية إلى دول العالم الثالث من المعسكر الشرقي ليدعم سياساته الخارجية وجد نفسه على حافة الانهيار. لقد كان انهيارا حتميا، لذا كان الاتحاد السوفييتي يحتاج إلى مشروع لمواجهة الانهيار بأقل قدر من الأضرار، وقد قدم غورباتشيف هذا المشروع على أساسين البيروسترويكا (إعادة البناء) والـ «غلاسنوست» (الانفتاح).

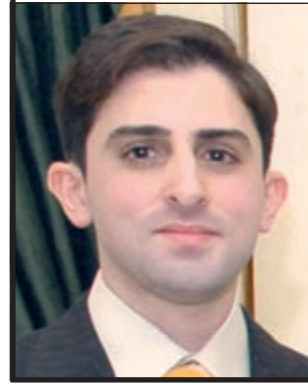
لم يغف عن بال غورباتشيف ما كانت مناطق الاتحاد تشهد من تغيرات سلوكية واجتماعية وعودة للمشاعر الوطنية والدينية والتعددية، خاصة في الشعر والأدب والسينما والموسيقى مع ازدياد التأثير الغربي والضغط الاقتصادية، وكان يعرف ان هذا الرماذ الذي يغطي البلد «الجبار» الذي يمتد من أواسط أوروبا إلى أقصى آسيا في شمال العالم يخفي تحته ما يخفيه من جمر.

وهكذا جاء قرار التغيير في الاتحاد السوفييتي من أعلى الهرم أي من الكرملين وليس من تحت (أي من القاعدة إلى القمة).

استشعر غورباتشيف الانهيار القادم فكان دوره الأساسي ان يهندس الظروف المواتية لمواجهة باقل قدر من الأضرار. كما انه نجح في الظهور بمظهر «المجدد».

في إحدى زيارته إلى بريطانيا توجه إلى المرأة الحديدية مارغريت تاتشر بالقول: «ان أوروبا هي

● بقلم: محمد الحسيني



الثورة بدأت بأغان

وطنية تتحدى الحزب

الشيوعي وكانت

مؤشراً على قرب انهيار

المعسكر الشرقي ومعه

جدار برلين



## 2

## ثورات الربيع

من صراع القوميات الذي تصاعد إلى حربين عالميتين، إلى صراع الأيديولوجيا الذي أدخل العالم في حرب باردة بين «الجبارين»، وصولا إلى ما يسمى بعصر القطب الواحد والعولمة، شهد العالم ثورات وانتفاضات شعبية لن تُنسى لاسيما تلك التي اتسمت بالطابع السلمي.

بعد انتصارها في الحرب الباردة واجهت الولايات المتحدة عمليات استهداف معادية من جماعات إسلامية سبق ان دعمتها أميركا في حربها الضروس ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. وصلت حركة طالبان إلى السلطة في أفغانستان عام 1994، ووفرت ملاذا آمنا لتنظيم «القاعدة» الذي أسسه أسامة بن لادن بين عامي 1988 و1989 أعلن حربه رسميا على الولايات المتحدة، وأولى عملياته البارزة كانت محاولة تفجير برج التجارة العالمي في 1993، ثم استهداف السفارتين الأمريكيتين في تنزانيا وكينيا عام 1998، قبل أن ينفذ هجمات 11 سبتمبر التي كرسست عمليا نظرية كان قد أطلقها استاذ العلوم السياسية صامويل هنتنجتون عام 1993 عن «صراع الحضارات» اعتبر فيها أنه بعد الحرب الباردة ستكون المواجهة الأعنف على أساس الحضارة، مستعرضا عددا من المواجهات المحتملة للحضارة الغربية مع الاسلام والحضارتين الصينية والاندوكية (الهندية).

مسار الأحداث والصراع بين «القاعدة» والغرب أعطى النظرية زخما منقطع النظير ودارت نقاشات مطولة، غالبا ما كانت تنتهي إلى أن المجتمعات الإسلامية ممانعة بحضارتها وموروثاتها للديموقراطية، مستشهدين بالثورة الإيرانية التي لم تقض إلى ديموقراطية بمفهومها الغربي رغم سلميتها، واستبعد كثير من الخبراء وبينهم هنتنجتون أن يشهد العالم العربي ثورات شبيهة بتلك الثورات التي حررت دول أوروبا الشرقية قبل وبعد سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي.

رحل هنتنجتون عام 2008 قبل 3 سنوات من أحداث اجتاحت فجأة العالم العربي فيها الكثير من سمات الحركات التحررية والديموقراطية السلمية التي سبق ان شهدها الغرب بدءا من أحداث 1968 في فرنسا إلى ربيع براغ ثم سقوط الجدار، كما لم يشهد قبل وفاته أحداث النرويج في 22 يوليو 2011 والتي تؤكد أن اليمين المسيحي ليس بأقل تطرفاً من اليمين الإسلامي.

ارجاء كثيرة من العالم العربي المسلم بغالبية شهدت خروج ملايين الشباب إلى الشوارع بحماس منقطع النظير، بدأ في تونس وامتد إلى دول أخرى تحت شعار «الشعب يريد إسقاط النظام» مستفيدين من ثورة التكنولوجيا القادمة من الغرب والإعلام الجديد الذي قدمته شبكة الإنترنت.

قوبلت الثورات بترحيب غربي وبذلت الدول الغربية وسفاراتها جهودا كبيرة على غرار تلك التي بذلتها في نهاية الثمانينيات في أوروبا الشرقية. وحاولت مساعدة الثوار في أكثر من حالة كان أوضحها ليبيا على تشكيل سلطة مؤقتة بديلة تتولى المرحلة الانتقالية خلال وبعد سقوط النظام.

بمناسبة ما أطلق عليه «الربيع العربي» نستعيد بالذاكرة بعض الثورات المشابهة في أوروبا والعالم خلال العقود الماضية منها الثورة المخملية في تشيكوسلوفاكيا والثورة الوردية في جورجيا والبرتغالية في أوكرانيا وثورة التوليب في قيرغيزيا وثورة البلدوزر في صربيا وثورة الغناء في دول البلطيق، إضافة إلى بعض تجارب القرن الماضي في مجال النضال السلمي للحركات التحررية وصولا إلى الثورات العربية.

جانب من المظاهرات السلمية